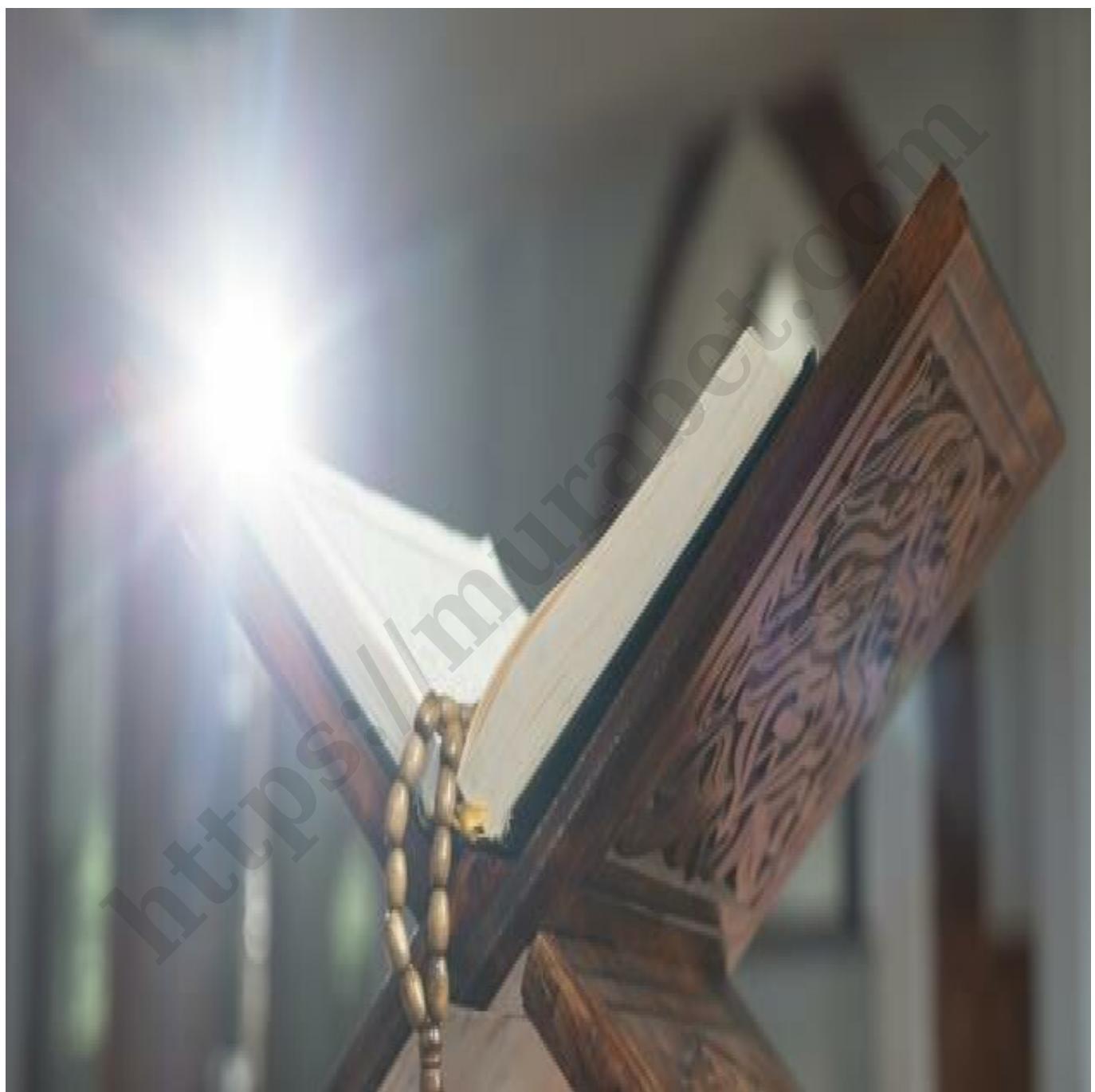


انشراح الصدر وأسبابه

الكاتب: ابن القيم



فَأَعْظَمُ أَسْبَابِ شَرْحِ الصَّدْرِ: التَّوْحِيدُ، وَعَلَى حَسْبِ كَمَا لَهُ وَقُوَّتِهِ وَزِيادَتِهِ يَكُونُ اَنْشِرَاحٌ صَدْرٌ صَاحِبِهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [ال Zimmerman: ٢٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيهِ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدُ أَنْ يُضْلِلَهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. فالهُدُى وَالتَّوْحِيدُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ شَرْحِ الصَّدْرِ، وَالشُّرُكُ وَالضَّلَالُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ ضَيْقِ الصَّدْرِ وَانْحِراطِهِ، وَمِنْهَا: النُّورُ الَّذِي يَقْدِفُ اللَّهَ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ، وَهُوَ نُورُ الإِيمَانِ، فَإِنَّهُ يَشْرَحْ الصَّدْرَ وَيُوَسِّعُهُ وَيُفْرِحُ الْقَلْبَ. فَإِذَا فَقَدَ هَذَا النُّورُ مِنْ قَلْبِ الْعَبْدِ ضَاقَ وَحَرَجَ، وَصَارَ فِي أَضْيَقِ سِجْنٍ وَأَصْعَبِهِ.

وَقَدْ رَوَى التَّرمذِيُّ فِي "جَامِعِهِ" عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ النُّورُ الْقَلْبَ اَنْفَسَحَ وَانْشَرَحَ». قَالُوا: وَمَا عَلَامَةُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالثَّجَافِيُّ عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالإِسْتِغْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ». فَيُصِيبُ الْعَبْدَ مِنْ اَنْشِرَاحِ صَدْرِهِ بِحَسْبِ نَصِيبِهِ مِنْ هَذَا النُّورِ، وَكَذَلِكَ النُّورُ الْحِسَيُّ، وَالظُّلْمَةُ الْحِسَيَّةُ، هَذِهِ تَشْرَحُ الصَّدْرَ، وَهَذِهِ تُضَيِّقُهُ.

وَمِنْهَا: الْعِلْمُ، فَإِنَّهُ يَشْرَحْ الصَّدْرَ، وَيُوَسِّعُهُ حَتَّى يَكُونَ أَوْسَعَ مِنَ الدُّنْيَا، وَالجَهَلُ يُورِثُهُ الضَّيْقَ وَالحَضْرَ وَالْحَبْسَ، فَكُلُّمَا اتَّسَعَ عِلْمُ الْعَبْدِ اَنْشَرَحَ صَدْرُهُ وَاتَّسَعَ، وَلَيْسَ هَذَا لِكُلِّ عِلْمٍ، بَلْ لِلْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، فَأَهْلُهُ أَشْرَحُ النَّاسِ صَدْرًا، وَأَوْسَعُهُمْ قُلُوبًا، وَأَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا، وَأَطْبَيْهُمْ عَيْشًا.

وَمِنْهَا: الْإِنَابَةُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَمَحَبَّتُهُ بِكُلِّ الْقَلْبِ وَالْإِقْبَالِ عَلَيْهِ وَالتَّنَعُّمُ بِعِبَادَتِهِ، فَلَا شَيْءٌ أَشْرَحُ لِصَدْرِ الْعَبْدِ مِنْ ذَلِكَ. حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ أَحْيَا نَا: إِنْ كُنْتُ فِي الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ فَإِنِّي إِذَا فِي عَيْشٍ طَيِّبٍ.

وَلِلْمَحَبَّةِ تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي اِنْشِراحِ الصَّدْرِ وَطِيبِ النَّفْسِ وَنَعِيمِ الْقَلْبِ، لَا يَعْرُفُهُ إِلَّا مَنْ لَهُ حِسْنٌ بِهِ، وَكُلَّمَا كَانَتِ الْمَحَبَّةُ أَقْوَى وَأَشَدَّ كَانَ الصَّدْرُ أَفْسَحَ وَأَشْرَحَ، وَلَا يَضِيقُ إِلَّا عِنْدَ رُؤْيَاةِ الْبَطَالِينَ الْفَارِغِينَ مِنْ هَذَا الشَّانِ، فَرُؤْيَتُهُمْ قَدْ زَانَ عَيْنِيهِ، وَمُخَالَطَتُهُمْ حُمْمَى رُوحِهِ.

وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ ضِيقِ الصَّدْرِ الْإِعْرَاضُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَعْلُقُ الْقَلْبِ بِغَيْرِهِ، وَالْغَفْلَةُ عَنْ ذِكْرِهِ، وَمَحَبَّةُ سِواهُ، فَإِنَّ مَنْ أَحَبَ شَيْئًا غَيْرَ اللَّهِ عُذْبَ بِهِ، وَسُجْنَ قَلْبُهُ فِي مَحَبَّةِ ذَلِكَ الْغَيْرِ، فَمَا فِي الْأَرْضِ أَشْقَى مِنْهُ، وَلَا أَكْسَفُ بِالَّا، وَلَا أَنْكَدُ عَيْشًا، وَلَا أَتَعْبُ قَلْبًا، فَهُمَا مَحَبَّتَانِ، مَحَبَّةُ هِيَ جَنَّةُ الدُّنْيَا، وَسُرُورُ النَّفْسِ، وَلَذَّةُ الْقَلْبِ، وَنَعِيمُ الرُّوحِ وَغِذَاوَهَا وَدَوَاوَهَا، بَلْ حَيَاةُهَا وَقُرْةُ عَيْنِهَا، وَهِيَ مَحَبَّةُ اللَّهِ وَحْدَهُ بِكُلِّ الْقَلْبِ، وَأَنْجِذَابُ قُوَى الْمَيْلِ وَالْإِرَادَةِ، وَالْمَحَبَّةُ كُلُّهَا إِلَيْهِ. وَمَحَبَّةُ هِيَ عَذَابُ الرُّوحِ، وَغَمُّ النَّفْسِ، وَسِجْنُ الْقَلْبِ، وَضِيقُ الصَّدْرِ، وَهِيَ سَبَبُ الْأَلَمِ وَالنَّكَدِ وَالْعَنَاءِ، وَهِيَ مَحَبَّةُ مَا سِواهُ سُبْحَانَهُ.

وَمِنْ أَسْبَابِ شَرْحِ الصَّدْرِ دَوْامُ ذِكْرِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَفِي كُلِّ مَوْطِنٍ، فَلِلذِّكْرِ تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي اِنْشِراحِ الصَّدْرِ وَنَعِيمِ الْقَلْبِ، وَلِلْغَفْلَةِ تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي ضِيقِهِ وَحَبْسِهِ وَعَذَابِهِ.

وَمِنْهَا: الْإِحْسَانُ إِلَى الْخَلْقِ وَنَفْعُهُمْ بِمَا يُمْكِنُهُ مِنَ الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالنَّفْعِ بِالْبَدَنِ وَأَنْواعِ الْإِحْسَانِ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ الْمُحْسِنَ أَشْرَحَ النَّاسَ صَدْرًا، وَأَطْبَيْهِمْ نَفْسًا، وَأَنْعَمَهُمْ قَلْبًا، وَالْبَخِيلُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِحْسَانٌ أَضْيقَ النَّاسَ صَدْرًا، وَأَنْكَدُهُمْ عَيْشًا، وَأَعْظَمُهُمْ هَمًّا وَغَمًّا. وَقَدْ «ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّحِيفَةِ مَثَلًا لِلْبَخِيلِ وَالْمُتَصَدِّقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَاحَتَانِ مِنْ حَدِيدٍ، كُلُّمَا هُمْ الْمُتَصَدِّقُ بِصَدَقَةٍ اتَّسَعَتْ عَلَيْهِ وَانْبَسَطَتْ حَتَّى يَجْرِي شِيَابَهُ وَيُعْفَيَ أَثْرَهُ، وَكُلُّمَا هُمْ الْبَخِيلُ بِالصَّدَقَةِ لَزِمَתْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا وَلَمْ تَتَسَسْ عَلَيْهِ» فَهَذَا مَثَلُ اِنْشِراحِ صَدْرِ الْمُؤْمِنِ الْمُتَصَدِّقِ، وَانْفِسَاحِ قَلْبِهِ، وَمَثَلُ ضِيقِ صَدْرِ الْبَخِيلِ، وَانْحِصارِ قَلْبِهِ.

وَمِنْهَا الشَّجَاعَةُ، فَإِنَّ الشُّجَاعَ مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ، وَاسِعُ الْبُطَانِ، مُتَسَعُ الْقَلْبُ،
وَالْجَبَانُ أَضْيَقُ النَّاسِ صَدْرًا، وَأَحْصَرُهُمْ قَلْبًا، لَا فَرْحَةٌ لَهُ وَلَا سُرُورٌ، وَلَا لَذَّةٌ لَهُ،
وَلَا نَعِيمٌ إِلَّا مِنْ جِنْسٍ مَا لِلْحَيَوَانِ الْبَهِيمِيِّ، وَأَمَّا سُرُورُ الرُّوحِ وَلَذَّتُهَا وَنَعِيمُهَا
وَابْتِهاجُهَا فَمُحَرَّمٌ عَلَى كُلِّ جَبَانٍ، كَمَا هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَى كُلِّ بَخِيلٍ، وَعَلَى كُلِّ
مُعْرِضٍ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، غَافِلٌ عَنْ ذِكْرِهِ، جَاهِلٌ بِهِ وَبِأَسْمَائِهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ
وَدِينِهِ، مُتَعَلِّقٌ الْقَلْبُ بِغَيْرِهِ.

وَإِنَّ هَذَا النَّعِيمَ وَالسُّرُورَ يَصِيرُ فِي الْقَبِيرِ رِيَاضًا وَجَنَّةً، وَذَلِكَ الضِّيقُ وَالحَضْرُ
يَنْقَلِبُ فِي الْقَبِيرِ عَذَابًا وَسِجْنًا.

فَحَالُ الْعَبْدِ فِي الْقَبِيرِ كَحَالِ الْقَلْبِ فِي الصَّدْرِ نَعِيمًا وَعَذَابًا، وَسِجْنًا وَانْطِلاقًا،
وَلَا عِبْرَةٌ بِاُشْرِاحِ صَدْرِ هَذَا الْعَارِضِ، وَلَا بِضِيقِ صَدْرِ هَذَا الْعَارِضِ، فَإِنَّ
الْعَوَارِضَ تَزُولُ بِزَوَالِ أَسْبَابِهَا، وَإِنَّمَا الْمُعَوَّلُ عَلَى الصَّفَةِ الَّتِي قَامَتْ بِالْقَلْبِ
تُوجِبُ اُشْرِاحَهُ وَحْبَسَهُ، فَهِيَ الْمِيزَانُ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَمِنْهَا بَلْ مِنْ أَعْظَمِهَا: إِخْرَاجُ دَغْلِ الْقَلْبِ مِنَ الصَّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ الَّتِي تُوجِبُ
ضِيقَهُ وَعَذَابَهُ، وَتَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حُصُولِ الْبُرُءِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَتَى الْأَسْبَابَ
الَّتِي تَشْرَحُ صَدْرَهُ، وَلَمْ يُخْرِجْ تِلْكَ الْأُوصَافَ الْمَذْمُومَةَ مِنْ قَلْبِهِ، لَمْ يَحْظَ مِنَ
اُشْرِاحِ صَدْرِهِ بِطَائِلٍ، وَغَايَتُهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَادَّاتُنِ تَعْتَوِرَانِ عَلَى قَلْبِهِ، وَهُوَ
لِلْمَادَّةِ الْغَالِبَةِ عَلَيْهِ مِنْهُمَا.

وَمِنْهَا: تَرْكُ فُضُولِ النَّظَرِ وَالْكَلَامِ وَالإِسْتِمَاعِ وَالْمُخَالَطَةِ وَالْأَكْلِ وَالثَّوْمِ، فَإِنَّ
هَذِهِ الْفُضُولَ تَسْتَحِيلُ الْأَمَّا وَغُمُومًا وَهُمُومًا فِي الْقَلْبِ، تَحْصُرُهُ وَتَحْبِسُهُ
وَتُضَيِّقُهُ وَيَتَعَذَّبُ بِهَا، بَلْ غَالِبُ عَذَابِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مِنْهَا، فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مَا
أَضْيَقَ صَدْرَ مَنْ ضَرَبَ فِي كُلِّ آفَةٍ مِنْ هَذِهِ الْأَفَاتِ بِسَهْمٍ، وَمَا أَنْكَدَ عَيْشَهُ، وَمَا
أَسْوَأَ حَالَهُ، وَمَا أَشَدَّ حَصْرَ قَلْبِهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مَا أَنْعَمَ عَيْشَ مَنْ ضَرَبَ فِي
كُلِّ حَصْلَةٍ مِنْ تِلْكَ الْخِصَالِ الْمَحْمُودَةِ بِسَهْمٍ، وَكَانَتْ هِمَتُهُ دَائِرَةً عَلَيْهَا، حَائِمَةً

حَوْلَهَا، فَلِهَذَا نَصِيبُ وَافِرٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣]، وَلِذَلِكَ نَصِيبُ وَافِرٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٤] وَبَيْنَهُمَا مَرَاتِبٌ مُتَفَاوِتَةٌ لَا يُخْصِيهَا إِلَّا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ أَكْمَلَ الْخَلْقِ فِي كُلِّ صِفَةٍ يَحْصُلُ بِهَا اِنْشِرَاحُ الصَّدْرِ، وَاتِّساعُ الْقَلْبِ، وَقُرْبَةُ الْعَيْنِ، وَحَيَاةُ الرُّوحِ، فَهُوَ أَكْمَلُ الْخَلْقِ فَهَذَا الشَّرْحُ وَالْحَيَاةُ وَقُرْبَةُ الْعَيْنِ مَعَ مَا خُصَّ بِهِ مِنَ الشَّرْحِ الْحِسَيِّ، وَأَكْمَلُ الْخَلْقِ مَتَابِعَةً لَهُ، أَكْمَلُهُمُ اِنْشِرَاحًا وَلَذَّةً وَقُرْبَةً عَيْنِ، وَعَلَى حَسَبِ مُتَابَعَتِهِ يَنَالُ الْعَبْدُ مِنْ اِنْشِرَاحِ الصَّدْرِ وَقُرْبَةِ عَيْنِهِ وَلَذَّةِ رُوحِهِ مَا يَنَالُ، فَهُوَ صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذُرْوَةِ الْكَمَالِ مِنْ شَرْحِ الصَّدْرِ وَرَفْعِ الذِّكْرِ وَوَضْعِ الْوِزْرِ، وَلِاتِّبَاعِهِ مِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ نَصِيبِهِمْ مِنْ اِتِّبَاعِهِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَهَكَذَا لِإِتْبَاعِهِ نَصِيبُ مِنْ حِفْظِ اللَّهِ لَهُمْ، وَعِصْمَتِهِ إِيَّاهُمْ، وَدِفاعِهِ عَنْهُمْ، وَإِعْزَازِهِ لَهُمْ، وَنَصْرِهِ لَهُمْ، بِحَسَبِ نَصِيبِهِمْ مِنَ الْمُتَابِعَةِ، فَمُسْتَقِلُّ وَمُسْتَكْثِرُ. فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمِدِ اللَّهَ. وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ).

المصدر:

زاد المعاد في هدي خير العباد (22 / 22).

الكلمات المفتاحية:

#ابن-القييم

تنويه: نشر مقال أو مقتطف معين لكاتب معين لا يعني بالضرورة تزكية الكاتب أو تبني جميع أفكاره.